شَاهدُ عيَان

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

سمعتُ هَذه القصَّةَ العجيبةَ من أحَد الأمريكيِّينَ الأفَارقة بالولايات المتَّحدة. صادفتُه يصطادُ السَّمَكَ على ضفَّة نَهْر البوطوماك، بمُحَاذاة الشَّلالات الكُبْرَى بولاية ڤيرجينْيا. كانَ ذلكَ في السِّتينات، أثناءَ عَملي بسفارَتنا بواشنْطُن. كنتُ لا أتركُ عطلةً إلا اغتنمتُها للخُروج إلى الشَّلالات للفُسحَة والهُرُوب من ضَوْضَاء المَدينة.

وبينمَا أنَا أسيرُ بينَ أشْجَار الغَابَة الكَثيفَة وقعَ بصَرَي علَى (رالف هاورد). كانَ قاعداً علَى كرسيٍّ صَغير، وبجَانبه سَلَّةٌ، وفي يَده قَصَبَةُ صَيْد. ونزلتُ إلَيه المنحَدَرَ، وسلَّمْتُ فردَّ عليَّ السلامَ باقتضَاب.

ولأُجاذبَه أطرافَ الحديث، سألتُه هَلْ صادَ شيئًا، فأومَأ إلى السلَّة برَأسه. وكانَ بالسَّلة بعضُ السَّمكَات الصَّغيرة والمتوسِّطَة الحَجْم. وحتَّى أُثيرَ اهتمَامَه، قلتُ لَه إني صيَّادُ سَمَكٍ كَذلك، ولكنْ في البَحْر، وفي بَلَدي المَغْرب. فسألَني:

«أينَ ذلكَ؟» قلتُ في شَمَال إفْريقيَا. وحينَ سمعَ كلمَة إفريقيَا رفعَ عينَيْه معبِّراً عن اهتمَامه، وسألَ: «أنت إفريقيٌّ إذَنْ؟»

وأدركتُ مَا يدورُ في ذهْنه، فقلتُ شارحًا: «نحنُ في شَمالِ إفْريقيَّا أقلُّ سُمْرةً من إخْوَانِنا في وَسطِها وجَنُوبِها.»

وحرَّكَ رأسَه مقتنعًا بشرْحي، وانطلق يحدِّثني بلكْنته الجنوبية المحبَّبة، فعرَفْتُ أنه حارسُ غابةٍ متقاعدٌ. وجلست بجانبه، فناولني قصَبَتَه لأُجرِّبَ حظِّي، وأَخرَجَ هو أُخرى من غمْدِها الجلدي.

وأثناءَ الحديثِ عرفت أنه هاجرَ مع عائلته من ولايةِ ألاباما، وهو غلامٌ إلى قطاعِ كولومبيا حيثُ توجَدُ واشنطن العاصمةُ. وكيف حصلَ على عمَلِه كحارس غابةٍ، وكيف أنه قضى قرابةَ خمسين سنةً في عمله هذا، وكيف أن الإدارةَ نَسِيَتْهُ فلم تُحلْهُ على التقاعُدِ إلا بعد بُلوغه السبعينَ. فصفَّرتُ دهشةً، وقلت: «لابد أنك لقيتَ في مسيرتك الطويلةِ هذه كثيراً من الأحداثِ الغريبةِ، فما هي أغربُ حكايةٍ وقعت لك؟»

وحملق قليلاً في الفراغ، ثم ابتسمَ متذكِّراً، وقال:

«منذ حوالي خمسِ سنواتٍ أو سبعٍ، لا أذكرُ، كنتُ أقومُ

بجولتي التفتيشية في غابةٍ قريبةٍ من هنا. كنت أرشُمُ الأشجارَ الميتةَ لقطْعِها، تفادياً لسقوطها على الناسِ وتفادياً لخطرِ الحرائقِ... ولفَتَ نظري جِذْعُ شجرةٍ ضخمةٍ كان معلَّقاً بين شجرتين ثابتين غيرِ قادرتين على حملِه. وقفت أنظرُ إليه وأردِّد في سرِّي: «بحياتي لا أدري كيفَ تعلَّقَ ذلك الجِذْعُ الكبيرُ بين الشجرتين الثابتين، وكيف لم يسقُطْ، رغم ثقلة!»

ورشمْتُ الشجرتين بالأحْمَرِ، لأعودَ في اليومِ الموالي بالأدواتِ اللازمةِ لإسقاطِ الجذعِ وإزالةِ خطرِهِ على المارَّة، رغم أن احتمالَ مرورِ أحدٍ من هناك كان بعيداً.

وفي اليومِ الموالي، أعددتُ الحبلَ والمِخْطافَ لإنزالِ الجذعِ الميِّتِ.

وقبل أن أصلَ إلى المكانِ ترامى إلى سمعي صوتٌ مرتفعٌ لامرأةٍ غاضبةٍ. كان يبدو أنها تُعنِّفُ رجُلاً وتستنكرُ اقتراحَه. لم تكن تتكلَّمُ بلهجةِ امرأةٍ سوداءَ. وتوقفتُ عن السيرِ خشيةَ أن أحشُرَ نفسي بين زوجينِ يتخاصمان، فَأُحْرِجُهما.»

وابتسمَ العجوزُ عن فمٍ خالٍ من الأسنانِ، وأضاف:

«أنا الآخرُ كنت شابا في يومٍ من الأيامِ!»

ثم عاد إلى الموضوعِ: «ووجدتُ نفسي مُجْبَرًا على سماعِ الحوارِ الدائرِ عن غيرِ قصدٍ. وكان واضحًا أن الفتاةَ كانت غيرَ راضيةٍ عن سلوكِ الشابِّ. وكانت تُعبِّرُ له عن خيبةِ أملِها، وتحذِّرُه من وضعِ يدِه عليها، إلاَّ إذا وعدَها بأن يتخلَّى تمامًا عن العملِ الذي كان يُمارِسُه!

واقتربتُ قليلاً لأُنصتَ إلى ما كان يقولُه لها. كان يهدِّئُ روعَها، ويطلُبُ منها أن تُخَفِّضَ صوتَها، وتُنصتَ إليه بهدوءٍ.

ومما استطعتُ الْتقاطَه من كلامِه المهموس، فهمتُ أنه ابن رجلٍ قويٍّ في إحدَى دُولِ أمريكا اللاتينية، وأنه جمع ثروةً طائلةً من تجارةِ المخدِّراتِ، ويريدُ من الفتاةِ أن تساعِدَه، من موقعِها كموظفةٍ في بنكٍ كبيرٍ، على تبييضِ ثروتِه والزواجِ منه. ورفضتْ هي العرضَ رفضًا باتًّا! وحين يئسَ من إقناعِها، تغيَّرَ موقفُه وصوتُهُ، وقال لها مُهَدِّدًا: «لم يبقَ لك خيارٌ! فقد أصبحتِ تعرفين أكثرَ مما هو في مصلَحتِك!»

وأدركَت هي ورطتَها! وفهمت سببَ مُصارحتِه لها

برغبته والكشف لها عن سرِّه الخطير في ذلك المكان المهجور... لابد أنها كانت تظنُّ أنه جاءَ بها إلى هناك لرومانسية المكان. ولابد أنها تخيَّلت بقيَّةَ السيناريو الذي كان مخطَّطًا في دماغه.

واقتربتُ أنا في الوقت المناسب، لأراه يُخرِجُ من جيب صدره خنجرَ صيدٍ كبيراً. ورأيتُها تقفزُ كالقطة الشَّرِسَة، وتتركُ له التريكو الصوفيَّ الذي أمسكَ بها منْهُ، وتعدو صوبَ الممَرِّ. وقفز هو خَلْفَها كالفَهد! وكان قصيراً قويَّ البنية، عريضَ الكتفين، مستديرَ الوجه. وكانت هي أطولَ منه قامةً وأكبرَ سنًّا. وكان واضحًا من بُطْءِ حركتها وسُرعة رَكْضِ الشابِّ، أنها واقعةٌ في قبضته، وأنها أصبحت، منذ تلك اللحظة، مجرَّدَ جسدٍ سيتحوَّلُ قريبًا إلى جُثَّة!

وفاجأتني الأحداثُ، فلم أدْرِ ما أفعلُ. وتذكرتُ المخطافَ الحديديَّ في يدي، فجرَيْتُ خلْفَه عازمًا على إلْقائه بين ساقيه، لعَرقَلَة مطاردَته للفتاة. لم أكن واعيًا بالمأزَق الذي أضعُ نفسي فيه، ولا بالخطرِ الذي سأتعرَّضُ له بسببِ وقوفي في وجه

إمبراطورٍ وابنِ إمبراطورِ مُخدِّراتٍ دوليٍّ كبيرٍ! ووقفتُ خلفَه، وأخذتُ أُديرُ المخطافَ في الهواءِ بالحبلِ مستعداًّ للإلْقاءِ به بينَ ساقَيه، وصِحتُ به: «قِفْ مكانَك!» ويبدو أنه لم يسمعْني، فقد تحوَّلَ إلى وحشٍ مدفوعٍ بقوةِ الغريزةِ إلى الانْقضاضِ على فريسته!

وفجأةً حدث شيءٌ غريبٌ. سمعنا في هُدُوءِ الغابةِ صَريرَ تقصُّفٍ عالٍ. وتوقَّفَ الشابُّ الراكضُ لينظُرَ إلى مصدرِه. كان الصوتُ العنيفُ يُحيطُ بنا من كل جانبٍ. وكان كلٌّ منا يتوقَّعُ أن يسقُطَ عليه شيءٌ ما! واستطعت أنا تحديدَ مكانِ التقصُّفِ بفعلِ التجربةِ، فإذا هو الجذْعُ الميِّتُ المعلَّقُ يُفْلِتُ من بين الشجرتين، ويهوي فوق الشابِّ كشفرةِ مِقْصَلَةٍ! وصرخَ صرخةً عظيمةً، ووقع على وجهِه بين الشجرتين تحت الجِذع الضخْمِ.

ويبدو أن الفتاة الهاربةَ سمعت صُراخَة، فتوقفت عن الركْضِ، والتْفتت لترى ما حدث، فرأته واقعًا تحت الجذعِ بلا حراكٍ. ورأتني أقترِبُ منه والمخطافُ في يدي، فزايَلَها الخوفُ، ووقفت تنتظرُ ماذا سأفعلُ. واقتربْتُ أنا من الشابِّ المُنبَطحِ

بحذرٍ شديدٍ، وقد رفعتُ المخطافَ لضربه، إذا صدرت عنه حركةٌ مفاجئةٌ. وناديتُها لتقتربَ، وتنزعَ سلاحَه. وأخذت أشجِّعُها حتى انْحَنَتْ والتقطتِ الخنجرَ الذي كان مُلْقًى بجانبِ رأسه، ووضعت يدَها على وَريده لجسِّ نبضه، ورفعت رأسَها لتقولَ لي إنه ميِّتٌ! وجَسَسْتُ أنا نبضَ رُسْغه، فتأكَّد لي ذلك...»

* * *

وسكتَ رالْفْ، وانصرفَ إلى قصبةِ الصيد، وانتبهتُ أنا إلى دقَّاتِ الجرسِ الصغيرِ المعلَّقِ برأسها، والذي كان يُعْلِنُ عن ابتلاعِ سمكةٍ للطُّعْمِ، ووقوعها في الشِّصِّ. لابدَّ أننا كنا منغمسين في القصةِ المثيرةِ فلم نسمَعِ الجرسَ. كانت قصبتي هي التي صادت السمكةَ. فهنَّأني، وانحدرَ إلى حفَّةِ الماءِ بشبكةِ الغرْفِ ليَغْرُفَها، خشيةَ أن تُقَطِّعَ الخيطَ، فقد كانت سمكةَ سالمونْ أكبرَ من المتوسِّطِ. وصعِدَ بها، ووضعها أمامي، فأمسكتُ بها من رأسها وصدرها، وقَطَمْتُ رَقَبَتَها، وقلَبْتُ رأسَها إلى الوراءِ بحركةٍ واحدةٍ قويةٍ، فكفَّتْ عن الاضطرابِ، وساح دمُها على الطينِ الأسودِ والأعشابِ. وسألني رالف مستغربًا:

– لماذا فعلتَ ذلك؟

– إنها عادتُنا في بلادِنا. وهي نوعٌ من الذبحِ، يعجِّلُ بموتِ السمكةِ، ويحُدُّ من مُعاناتِها. وفيه كذلك فائدةٌ. فخُروجُ الدمِ من السمكةِ يجعلُ لحمَها أصفَى وأطيبَ.

فمطَّ شفتيهِ مستغربًا، وسألني:

– وماذا ستفعلُ بها؟

– ماذا ستفعلُ بها أنت؟ فهي سمكتُك.

– بل إنها لك أنت. أنت الذي صِدْتَها.

– صِدتُها بقصَبَتِك.

– فلنقل، إذن، إنها سمكتُنَا.

– ماذا تقترِحُ أن نفعلَ بها.

– إذا كانت أوَّلَ سمكة تصيدُها في هذا النهرِ أو في هذا الموسمِ، فالتقاليدُ تقتضِي أن نشويَها هنا، في عينِ المكانِ، ونأكلَها حتى يُرَافِقَنَا الحظُّ في المرةِ القادمةِ...

– فلْيَكُنْ!

وانصرف هو إلى تنظيفِها، وأنا إلى جمعِ الحطبِ وإشعالِ

النارِ. وجلسنا حولَها، وهي تُشْوَى على حطبٍ ذي رائحةٍ طيبةٍ، وعلى صوتِ خريرِ الشلاَّلِ القريبِ، وقد خالجَني شعورُ الرُّوادِ الأوَّلين لمجاهلِ أمريكا، قبل ما يَقرُبُ من أربعمائة عام... وهو شعورٌ لا يمكنُ وصفُه!

وعُدْتُ برالْفْ إلى قصةِ الشاب الذي قتله جذعُ الشجرةِ، فحرك رأسَه مُخالفًا، وقال:

– لم يقتُلْهُ الجذْعُ!

– ماذا!؟

– فَحَصْناه أنا والمرأةُ، فلم نجدْ أثرًا لسقُوطِ الجذعِ عليه. فقد توقَّف الجذعُ، قبلَ أن يسحَقَه، بِبُوصَةٍ واحدةٍ!

– فما الذي قتلَه إذن؟

– لا أدري. لعلَّه الفزَعُ.

وسكت قليلاً، ثم أضاف:

– هذا ما قاله الطبيبُ الشرعيُّ.

قال: إنه مات بسكْتَةٍ قلبيةٍ. ولكن، في نظري ولكنها إرادة الله تدخَّلتْ في الوقت المناسبِ لإنقاذِ الفتاةِ البريئةِ،

ولإيقافِ هذا الفتَى الشرِّيرِ عند حدِّه قبل أن يستَفْحِلَ شرُّه!

– وماذا فعلت رفيقَتُه؟

– نصحتُها بالاختفاءِ فوراً حتى لا يقترِنَ اسمُها به وبموتِه وبعصابَةِ مافيا المخدِّرات التي كان يترأَّسُها الشابُ في الولاياتِ المتحدةِ نيابة عن أبيه الرجُلِ القويِّ. وأخبرتُ أنا السلطاتِ بوجودِ جثةِ الشاب، دون الإشارةِ إلى المرأة أو إلى أيِّ شيءٍ آخر.

وقلَبَ رالف السمكَةَ التي بدأت تفوحُ منها رائحةٌ شهيةٌ، وقال:

– كان لموتِ الولدِ عواقبُ وخيمةٌ على أبيه، كما روت الصحُفُ. فقد عثَرت شرطةُ المخدراتِ مع الشابِّ القتيلِ على وثائقَ مُورِّطةٍ لأبيه وللشبَكةِ التي كان يُديرُها. وسقطت الحكومةُ التي كان أبوه رجُلَها القويَّ، وقُبِضَ عليه، وصُودرتْ جميعُ أموالِه وممتلكاتِه، ومات أثناءَ التحقيقِ بطريقةٍ غامضةٍ...